عمر الخيام كما أعرفه

— ٤ —

محمود المنجوري

— هل عمر الخيام خرافة

قد يكون من العسير على الباحث أن يزيل من سطور التاريخ الادبي روايات تداولت أجيالاً طويلة ، تلقاها العلماء في غير تردد أو شك ، فالناس — لأمر ما — يقدّسون ما جاء عن السلف ، وقد جبلوا على ألاّ يتعبوا أنفسهم أو يرهقوا تفكيرهم ، على ان الأمانة العلمية تدعو كل باحث ألاّ يعلن رأياً جديداً قبل أن يتخذ العدة ويجمع البراهين التي تؤيد ما يقول ، بل ان هذه الامانة تدعوه أن يكون هو مؤمناً واثقاً بصحة دعواه ، قبل أن يذهب وراء الشكوك والتردد ويسرع فيعلن آراءه مبتسرة في التاريخ والعلم جريا وراء الشهرة ومخالفة للاجماع الادبي

فيوم زعم الدكتور رو ان عمر الخيام خرافة ، لم يتقدم بهذا الزعم مؤمناً به لأنه مستشرق كبير كان في متناوله أن يطلع على ما قدمنا من وثائق تاريخية تؤيد وجود الخيام في الحياة . ولكنه ذهب مذهب المجلة وسعى وراء الظهور برأي جديد . وليس هذا شأن الخلق العلمي . كذلك زعم الدكتور رُس أن وصية نظام الملك وصية موضوعة وان اجتماع عمر الخيام ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة أمرٌ غير محتمل لاختلاف أفكارهم ، وأنهُ وضع غير معقول ولامقبول ، وان الرأي الذي ارتآه السير رُس هو ان وزيراً آخر غير نظام الملك كان مع حسن الصباح في مدرسة واحدة ، وان هذا الوزير هو أنوشروان ابن خالد ، وفي هذا يتم السير رُس دعواه فيقول :

« قد يكون من العسير ان نقنع الرأي العلمي بأن الوزير انوشروان كان في المدرسة مع حسن الصباح ، فمن سوء الحظ اننا لا نعلم تاريخ ميلاد هذا الوزير ، وأول تاريخ في حياته أشار اليه هو بنفسه سنة ١٠٩٥ عند ما اشترك في موقعة وأصبح بعدها وجلاً عظيماً ؛ ولقد مال حسن الصباح الى مذهب الاسماعيلية في سنة ١٠٧١ م ، ولم تكن خراسان وطنه ؛ ولقد

ذكر لنا انهُ دخل في الاسماعيلية على يد فئة كانت تدعو اليها في خراسان ، وعلى أي حال فقد دخل في الاسماعيلية بعد مغادرته المدرسة ، فمن المحتمل ان يكون حسن الصباح قد بلغ العشرين يوم انتهى من الدراسة ودخل في تلك الفرقة، وعلى هذا فلا يمكن ان يكون تاريخ مولده قبل سنة ١٠٥٢ م

وعليه فمن المرجح ان يكون حسن الصباح وأبو شروان بن خالد قد ولدا نحو سنة ١٠٥٠ م ، وانهما كانا في مدرسة واحدة في نيسابور وان شخصاً في القرن الذي تلا هذا العصر حسب أن نظام الملك قرناً لعمر الخيام [1] وان وزيراً عظيماً آخر يسمى نوشروان كان في المدرسة مع حسن الصباح ، وان الاربعة جميعاً درسوا في نيسابور ، وحدث ان اختلط الأمر بين الوزيرين، ومن هنا نشأت قصة الرفاق الثلاثة لنظام الملك وعمر الخيام وحسن الصباح

ونستطيع أن نمر في حياة عمر الخيام كلها على حادثين تاريخيين لا شك فيهما ، ففي سنة ١٠٧٤ م اجتمع عمر مع سبعة من علماء الفلك لاصلاح التقويم بناءً على دعوة ملك شاه، والتاريخ الثاني هو سنة ١١١٢ م عند ما زاره تلميذه النظامي العروضي ولقبهُ في بلخ

فلو فرضنا ان حسن بن الصباح ولد في سنة ١٠٥٠م وما دام عمر في سنه وقد ثبت أن عمر في سنة ١٠٧٤ م كان من هيئة كبار الفلكيين فتكون سن عمر في هذه السنة ٢٤ سنة . فهل من المعقول ان يكون عمر قد بلغ في عصره شهرة عالمية فيصبح الفلكي الاول في الدولة ولما يبلغ من العمر غير اربع وعشرين سنة ؟ ولهذا أميل الى وضع تاريخ ميلاد عمر في سنة متأخرة بعض عشرات السنين قبل ميلاد حسن الصباح . ولتكن سنة ١٠٤٠م عاماً لميلاده، فبناءً عليه يكون عمر قد بلغ الثالثة والثمانين في سنة ١١٢٣ م وهو العام الذي اتفق على ان الخيام قد مات فيه . ويكون قد بلغ الخيام الثانية والسبعين عند ما لقيهُ تلميذه النظامي العروضي في بلخ

ولم يذكر تاريخ وفاة عمر على حقائق ثابتة ، وانى لاشك في رواية اتصاله بالسلطان سنجر ، فهذه القصة هي الاخرى لم ترد في غير المراجع الحديثة التي خلط اصحابها بين السلطان سنجر وبين شمس الملك الخاقاني صاحب بخارى [2] . ومن المحقق انه قد حدث ايام ولاية سنجر للعهد ما دعاه الى كراهية الخيام [3] ان ما هو محقق لدينا ان الخيام كان في سنة ١١١٢م

(١) هذه المسألة ما زالت غامضة فقد رأيت الخيام في كتاب الجبر يأتي اشارة الى نظام الملك بما يحيث صريحاً على نبي طاهر فقد كان أعطاني أبو طاهر على استمرار البحث وكنت أوشكت على نظمه بيتاً وأبو طاهر هو شرف الدين أبو طاهر السكوني الذي ولاه نظام الملك في سنة ١٠٨٨ ولاية مرو والذي استوزره السلطان سنجر فيما بعد

(٢) حكم شمس الملك من سنة ١٠٦٧ م الى سنة ١٠٧٩ م (٣) نزهة الارواح للشهرزوري

حيًّا يرزق لما زاره تلميذه النظامي العروضي وان النظامي عاد سنة ١١٣٥ م فزار قبر الخيام

وعثرنا في طبعة طهران لرباعيات الخيام على نبوءة تنبأ بها في شتاء سنة ٥٠٨ هـ أي بين سنتي ١١١٤ و ١١١٥ م ، وعلى هذا يجب ان نضع وفاة الخيام في الفترة بين عامي ١١١٥ م و ١١٣٥ م ومن هذا أرى ان تكون الوفاة في سنة ١١٢٣ م

وعلى ضوء الحقائق التي تقدمت، أُبيح لنفسي ان أضع حياة الخيام وضعاً لا شك فيه فأقول : ولد الخيام بمدينة نيسابور في القرن الحادي عشر للميلاد . والده ابراهيم اتخذ صناعة الخيام حرفة له ، وليس من المرجح ان يكون عمر قد اشتغل بحرفة أبيه كما كانت عادة ذلك العصر ، ولقد حفظ في بلدته القرآن وتعلم علوم الفقه والحديث والكلام وأدب اللغة العربية وعلوم الرياضة ، وتخصص في علوم الفلك والفلسفة وعكف على دراسة الطب ، ومن المحتمل ان يكون قد درس الفلسفة في مدرسة نيسابور . وكانت وظيفته رصد الأفلاك ، وكان واحداً من الثمانية الذين عينهم ملك شاه لاصلاح التقويم وانشاء التقويم الجلالي »[1]

هذا بحث رُس ولا يخلو من طرافة ، فهو يكشف عن ناحية من طرائق الاستقراء العلمي الذي يقوم به كبار المستشرقين في آدابنا، على انني لا أستطيع أن أقبل ما جاء فيه جميعه كما لا استطيع ان أرفضه اطلاقاً ، فنحن الآن أمام تقريرين أحدهما منسوب الى نظام الملك لا يريد السير رُس وغيره من العلماء ان يأخذ به ، والآخر منسوب الى انوشروان وقد أخذ به السير رُس . وقد ذكرت في التقرير الأول الوقائع صريحة وأسماء الخيام وحسن الصباح ونظام الملك مكشوفة سافرة ، وأما ما ذكره انوشروان فانما هو تلميح لا يجوز أن يأخذ به عالم يقضي بحكمه في قصة تاريخية متصلة بالأدب والعلم . ويرفض السير رس وصية نظام الملك لأن المصادر القديمة لم تذكرها ولأنها ظهرت في عصر متأخر ، فهل ذكرت المصادر القديمة مذكرات الوزير أبو شروان ؟ على ان عدم ظهور وثيقة نظام الملك في عصر قريب من الخيام لا يقلل من شأنها او يبطلها ؛ فالبحث العلمي قائم غير منقطع، وباب الاجتهاد مفتوح وقد تظهر الآن وثائق اخرى تتصل بعصر الخيام وغير الخيام ، وكانت مطمورة او مجهولة قروناً طويلة فتغير من الاوضاع العلمية والادبية وتوجد حقائق جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، ومع هذا فلا يجوز ان يحتج مبطل بأنها وثائق لم يذكرها المؤرخون القدامى أو انها ما دامت متأخرة عن عصر صاحبها بقرون طويلة فلا يؤخذ بما فيها

(١) مقدمة رس لرباعيات ص ٦٩ ط لندن ١٩٠٠

وكذلك يرفض السير رُس وثيقة نظام الملك لعدم احتمال تعمير الخيام وحسن الصباح هذا الأجل الطويل جداً ، ولست أدري ما الذي يمنع من تعمير صديقين أجلاً طويلاً متقارباً . ولذا جاز ان نصدق أنو شروان عندما يقول : لقد كنت بالمدرسة مع حسن الصباح فلماذا لانصدق وزيراً آخر عندما يقول هذا القول ، مع ان نظام الملك قاله صريحاً دون تلميح او اشارة أو غموض ، كما فعل انو شروان . وأخذ هوتزما والسير رُس يخرجان من قول أنو شروان ماطاب لهما من تخريج

لما تناقض السنوات التي ولد فيها عمر او حسن الصباح او نظام الملك ، نبحث لا يتصل بسلامة وصية نظام الملك ؛ فتحديد الاعمار في هذه العصور من الامور التي لا يمكن ان تكون على وجه الضبط والتدقيق ، ويقول رُس انهُ اذا أخذ بوصية نظام الملك فمعنى هذا ان عمر الخيام يكون قد بلغ الرابعة والعشرين عندما استدعاه نظام الملك وملك شاه لاصلاح التقويم ، وأنكر ان يبلغ فلكي ذروة المجد في هذه السن . ولست أدري لماذا ننكر النبوغ وعبقرية الجد على الشباب وما زال الشباب يقود العلم والأدب والهندسة والطب والاختراع في جميع مرافق الفكر والفنون . وهل من المستحيل ان ينبغ شاب في سن الخيام فيكشف قوانين جديدة في علوم الفلك والحركة والكهربي والصوت واللاسلكي وعالم الميكروبات ، فتقلب الحقائق على أوضاعها وتنشأ حقائق جديدة لم تكن في الحسبان؟ ان للشباب جهوداً مذكورة في العبقرية والنبوغ ولهذا لا يجوز ان نأخذ بما أخذ به السير رُس في هذا الباب

على اننا نستطيع ان نشير الى المصادر القديمة التي ذكرت اجتماع عمر الخيام ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة وهذه المصادر هي :

(١) كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله المتوفى سنة ٧١٨ هـ

(٢) كتاب روضة الصفا للشيخ ميرخند من علماء القرن الثامن للهجرة

(٣) فردوس الشعراء سنة ١٣٢٨ هـ

(٤) دبستان مذاهب : كتب في القرن السابع عشر للميلاد في العقائد والمذاهب والاديان

وهذه كلها تأخذ بوصية نظام الملك وتقر ما فيها

على انهُ قد اخذ العصريون بوصية نظام الملك ولم ينكرها غير طائفة قليلة ممن ذكرنا من المستشرقين كما اخذ بها غير واحد من ثقات البحوث الشرقية أمثال المستشرق برون ،

وليس من اصحاب المصادر الحديثة من أنكرها او بعبارة اخرى لم يقم للآن دليل علمي على بطلانها

*

صوت الخيام في الآداب الحديثة

ظلّ الخيام مغموراً في عصره وبلده لانهُ فيلسوف انقلابي مفكر ، حمل مشعل التفكير الحر ، ونقد تقاليد زمنه وآراء معاصريه ، وتهكم بزعماء الرأي وقادة الدين . ظلّ مغموراً لانهُ سبق زمنه بأجيال ، فنظروا اليهِ نظرة المتمرد الثائر . ولما صوته فلم يصل الى التفكير العربي القديم ، لأن دعوة الخيام قامت على شيء من الخصومة بين العقل الفارسي والعقل العربي الذي سيطر وسيطر بسيطرة القرآن والدعوة الاسلامية الخالصة على الدولة الفارسية ، ولأن التفكير العربي القديم لم يلتفت الى الخيام التفاته الى شاعر فذ أو فيلسوف جاء بالخارق من الرأي ، ولكن التفكير العربي ظل ملتفتاً الى الخيام التفاته الى عالم فلكي او رياضي ليس غير . فلم تعرف الرباعيات في الأدب العربي ولم يبلغ صوت الخيام كشاعر فارسي له رأيهُ وفنه وأدبه الا في العهود الأخيرة ، ولقد بلغنا هذا الصوت الشرقي الكريم من طريق الغرب وأدب الغرب ولم يصلنا من الأفق القريب !

لعل الثقافة العربية لم تشغل بأدب الخيام لاسباب ، منها أن في الادب العربي الكثير من الشعر ما نحا نحو الرباعيات في الخمر ، بل فيه من الشعراء من سبق الخيام الى المعاني التي احتوتها الكاس والخمر كما تقرأ في شعر ابي محجن الثقفي ، وابي الهندي ، وابي نواس وغيرهم ، وفيه من شعراء الفلسفة ما أغنى العقل العربي عن هذا الاهتمام به ، فله في أبي العلاء وغير أبي العلاء عوض يظفر بهِ ويغنيه عن شعر الخيام من فلسفة وتشاؤم وتمرد ، فالديوان العربي ديوان حافل محشود بما أغنى التفكير العربي عن الخيام قروناً طويلة

وفي الحق لم يكن من توافق بين مزاج الخيام الثائر وبين العقل العربي الذي هداه القرآن وصرفه عن التمرد والانقلاب ، ولهذا لم تظهر عناية الأدب العربي بهذا اللون الفارسي من الشعر ، ولم يحفل بهِ الا في فترة التجديد وانتعاش المبادىء الانقلابية التي سرت من الغرب الى الشرق ، فعاد الشرقي الى شاعره فوجدها في صوته القديم تتردد من أجيال سحيقة قبل أن يسمعها من روسو وديدرو وڤلتير وغيرهم من ادباء التجديد والثورة والانقلاب

ولعل توافق المزاج الاوربي مع نهج الرباعيات ومع الاهداف الادبية والانقلابية التي احتوتها هو الذي جعل التفكير الغربي يعتني بها ويهتم بالخيام هذا الاهتمام الملحوظ في همة المستشرقين والمطابع وجمهرة القراء والناقدين برباعيات الخيام وادبه ودعوته ، فاذا فكر العقل الاوروبي الحديث برباعيات الخيام اعترف بأنها لُقية غالية نادرة ، فهي من ناحية تتفق مع لون من ألوان الشعر المعروف بـ Sonnet وهي بعد هذا تجاري الاتجاهات الجديدة للتفكير في العقائد والمذاهب العقلية والاجتماعية ، فهذا الفوز الذي بلغته الرباعيات في أوروبة انما يرجع الى أن الخيام فهم الحياة كما يفهمها الاوروبي المعاصر ، فهو ينظر الى الحياة بمنظار المدنية الحديثة طبقاً لعقائد وجّسها واتخذها ذوقاً وقياساً لأدبه وفلسفته وحياته ، ولقد طبق الخيام هذه الأقيسة وأخضع هذه القيم التي ارتآها على تفكيره ونهجه ووجهه الذي ألهمه الرباعيات ، بل انه سلك بها حياته الخاصة مع الخاصة والعلماء وقادة الرأي ، فكان بالقياس الى أهل زمانه مفكراً ثائراً وملحداً وفيلسوفاً مجدداً في قيم الحياة العامة التي ألفتها الناس في عهده من جمود وركون ورياء وزهد وانصراف عن الحياة ومباهجها ، ولقد لقيت هذا التجديد وهذه الثورة الغربَ الى الخيام كفيلسوف شرقي حمل مشعل التفكير الحر ومعول الهدم قبل أن يحمله مفكرو الثورة الفرنسية ولقد اعترف رينان ومسيو باربيه دومينار المستشرق الفرنسي بهذا فقال « أليس حَدَثاً غريباً أن يظهر شاعر في بلاد فارس في القرن الحادي عشر للميلاد يكون قرناً كما قال رينان لجوتيه وهايني ؟ »

فالخيام فيلسوف مفكر سبق زمانه بقرون وأجيال ، وليست قيمة الرباعيات في جمال شعرها وجزالة موسيقاها ، ولكن قيمتها فيما قامت به كل رباعية كوحدة لها معناها ونظرها ودعوتها الحرة في الحياة والاجتماع والمذاهب الفكرية العامة . وهي من الناحية الأدبية عمل انساني غير مطبوع بطابع اللون أو الجنس أو الأثرة القومية أو المذهبية . ولقد بلغ الاعجاب بالرباعيات أن أنكر كثير من الأدباء والمستشرقين المذاهب التي جاءت بها على مفكر شرقي عاش في القرن الحادي عشر للميلاد ، وذهبت بهم الأنانة الى نسبتها الى فيتزجرالد نفسه ، فقالوا انها ليست بشعر فارسي وانما هي شعر انجليزي خالص وحيّاً وإلهاماً ومذاقاً وفنّاً ، ومن هؤلاء الجاحدين مستر لجانيان Le Gallienne ومستر أرثر بلات Arthur Blatt وقد تأثر برأيهما بعض المستشرقين والباحثين وبعض الغربيين الرجعيين الذين ينكرون على الشرق فلسفته وعبقريته ومدنيته ، وفنونه وخلوده وجماله والذين يقولون الشرق شرق والغرب غرب